الموضوع الثالث
كمال الإيمان

الموضوع الثالث

كمال الإيمان

الحمد لله رب العالمين، تبارك من في السماء عرشه، تبارك من في الأرض سلطانه، تبارك من في البحار عظمته، تبارك من في الحياة قدرته، تبارك من في الممات مشيئته، تبارك من أمره بين الكاف والنون، وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، لا تنحنى الجباه إلا له، لا تخشع القلوب إلا لعظمته، يا من يعلم حالنا، ويرى مكاننا، ولا يخفى عليه شيء من أمرنا، أنت العليم في قربه، أنت القريب في علمه، أحطت بكل شيء علمًا، وبينت لكل شيء سببًا، ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم:٩٣ - ٩٤].

سبحانك يا ربنا لا نُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، فأنت الحي القيوم، وأنت القاهر فوق عبادك، وأنت الأول فلا شيء قبلك، وأنت الآخر فلا شيء بعدك، وأنت الظاهر فلا شيء دونك.

والصلاة والسلام على البشير النذير، السراج المنير، الصادق الوعد الأمين، نور الكمال، وكمال النور، محمد سيد الكونين والثقلين من عرب وعجم.

اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد، وعلى أصحاب سيدنا محمد عدد أوراق الأشجار، ومثاقيل البحار، وذرات الرمال، وعدد ما أظلم عليه الليل، وأشرق عليه النهار، وعلى الآل والصحب الأخيار الأبرار.

كيف أستشعر أن قلبي يتزلزل كما كان يتزلزل قلب الصديق والفاروق رضي الله عنهما؟ كمال الإيمان معادلة إيمانية سهلة وبسيطة.. متى أستشعر أني مؤمن، وأن قلبي يتزلزل

كما يتزلزل قلب الصحابة ﷺ؟ الذي ينظر في أحداث المسلمين في هذه الأيام في فلسطين والعراق وغيرهما من بلاد العالم العربي والإسلامي ينبغي أن يقف موقفًا إيمانيًا طيبًا، هذا الموقف الإيماني نقيس به مدى الإيمان عندنا، كيف أقيس مدى إيماني وإيمانكم من هذه الأحداث؟ نقيس الإيمان بماذا؟ بالثقة بالله ﷻ واليقين في نصر الله، فما دام الله سبحانه وتعالى وعدنا بالنصر فإن الله لا يخلف الميعاد، هذه أمة منصورة نُصرت (بضم النون) بسيدنا محمد ﷺ.

قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]. أي: إذا تمَّ لك أيها الرسول النصر على كفار قريش، وتم لك فتح «مكة» فقد جاء نصر الله، وسيأتي نصر الله، ولكن متى يكتمل النصر؟ يكتمل النصر مع اكتمال الإيمان، لأجل هذا فإن بعض الناس الآن عندهم ذبذبة في الإيمان، وذبذبة في العقيدة، ويجب أن نعرف أن المسلم لا يتذبذب، ولا يأتيه الضعف أبدًا؛ لكن لأن هذه الأمة منتصرة بإذن الله تعالى، فإذا لم تنتصر هذه الأيام فإن نصر الله تعالى قادم؛ لأن رسول الله ﷺ وقف يوم بدر وهو يقول ويرفع يديه الشريفتين ﷺ: «اللهم نصرك الذي وعدتني»[1].

نحن أحوج إليك يا الله، ونحن أحوج إلى نصرك يا الله، ونحن أحوج لأن نكون مما قلت عنهم في كتابك الكريم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٧].

أي: فلم تقتلوا أيها المؤمنون المشركين يوم بدر، ولكن الله قتلهم، حيث أعانكم على ذلك، وما رميت حين رميت أيها النبي ولكن الله رمى، حيث أوصل الرمية التي رميتها إلى وجوه المشركين، وليختبر المؤمنين بالله ورسوله، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، ويعرِّفهم نعمته عليهم، فيشكروا له سبحانه على ذلك، إن الله سميع لدعائكم وأقوالكم ما أسررتم به وما أعلنتم، عليم بما فيه صلاح عباده.

---

(١) انظر: كتاب المغازي ٥٩/١، للواقدي ط. عالم الكتب ـ بيروت.

فاجعلنا اللهم نرمي بقوتك وبعظمتك، فأنت القوي والعظيم، ونحن يا الله لا عزَّ لنا إلا بك، ولا عون لنا إلا بالالتجاء إليك..

فلا تغتروا بما يفعله الظلمة في بلاد المسلمين، ومن هذا الذي في العراق ولبنان وغزة، لا تنزعجوا من هذا، لا تضعفوا من هذا، لماذا؟ قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦].

أي: لا تغتر أيها الرسول بما عليه أهل الكفر بالله من بسطة في العيش، وسَعَة في الرزق، وانتقالهم من مكان إلى مكان للتجارات وطلب الأرباح والأموال، فعمَّا قليل يزول هذا كلُّه عنهم، ويصبحون مرتهنين بأعمالهم السيئة؛ إنها قوة زائفة؛ لأنهم في الأصل جبناء، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ [الحشر: ١٤].

أي: لا يواجهكم اليهود بقتال مجتمعين إلا في قرى محصنة بالأسوار والخنادق، أو من خلف الحيطان، عداوتهم فيما بينهم شديدة، تظن أنهم مجتمعون على كلمة واحدة، ولكن قلوبهم متفرقة؛ وذلك بسبب أنهم قوم لا يعقلون أمر الله، ولا يتدبرون آياته.

إن الله تعالى يعطي لنا درسًا قويًّا في سورة آل عمران مَن أراد أن يعرف فضل الله تعالى علينا، وكيف يأتي نصر الله تعالى لنا؟ وكيف نكون أمة ربانية محمدية مقاتلة؟ فليقرأ سورة آل عمران، ومن خلالها نعرف ماذا يريد الله ﷻ من أمة الحبيب ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]. أي: وكيف تكفرون بالله أيها المؤمنون، وآيات القرآن تتلى عليكم، وفيكم رسول الله محمد ﷺ يبلغها لكم؟! ومَن يتوكل على الله، ويستمسك بالقرآن والسنة فقد وُفِّق لطريق واضح، ومنهاج مستقيم.

فلا يغرنكم هذا البطش، فإن هناك إيمانًا عند إخواننا أقوى من هذا البطش الذي يجري.. انظروا فإن الله تعالى يرسل الثقة في قلوبنا، فقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾[آل عمران:١٩٦-١٩٧].
أي: متاع قليل زائل، ثم يكون مصيرهم يوم القيامة إلى النار، وبئس القرار.

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧]. أي: وألهمنا أم موسى حين ولدته وخشيت عليه أن يذبحه فرعون كما يذبح أبناء بني إسرائيل: أن أرضعيه مطمئنة، فإذا خشيت أن يُعرف أمره فضعيه في صندوق، وألقيه في النيل دون خوف من فرعون وقومه أن يقتلوه، ودون حزن على فراقه، إنا رادُّوه إليك وباعثوه رسولاً، فوضعته في صندوق وألقته في النيل.

إن كمال الإيمان والثقة في الله تتجلى في هذا الموقف (موقف أم سيدنا موسى عليه السلام) والمنطق يقول: إذا خفت عليه فاحفظيه في مكان آمن، وضعيه في مكان آمن، وأبعديه عن الفرعون، هذا هو المنطق البشري، ولكن المنطق والعطاء الإيماني له مفهوم آخر، والعطاء الإلهي له مفهوم آخر.. فإذا خفتِ عليه ماذا تفعل؟ جاء الجواب غير متوقع، فقال تعالى: ﴿ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٧].

وهذا المعنى يُستفاد به أيضًا عند النوازل، كما حدث في أحداث غزة المجاهدة عام ٢٠٠٨م، فإن الله تعالى يأمر وهو الحافظ الحفيظ، وربك على كل شيء حفيظ.. كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥].

انظر إلى الخطاب: يا أيها الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، إذا لقيتم جماعة من أهل الكفر قد استعدوا لقتالكم، فاثبتوا ولا تنهزموا عنهم، واذكروا الله كثيرًا داعين مبتهلين لإنزال النصر عليكم، والظَّفَر بعدوكم؛ لكي تفوزوا.

إن هذه الآية في سورة الأنفال عظيمة وقوية وشديدة في أسباب النصر، والتمكين في الأرض، فالذي يثبت القلوب ويربط على قلوب المؤمنين هو علام

الغيوب سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]. أي: بل ظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة، ولَّما يصبكم من الابتلاء مثل ما أصاب المؤمنين الذين مضوا من قبلكم من الفقر والأمراض والخوف والرعب، وزُلزلوا بأنواع المخاوف، حتى قال رسولهم والمؤمنون معه على سبيل الاستعجال للنصر من الله: متى نصر الله؟ ألاَ إن نصر الله قريب من المؤمنين.

تلاحظ أن رب العالمين عندما قال عنهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾؟ رد عليهم: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾.

ولكي نصل إلى هذا النصر القريب لا بد أن تكون عندنا ثقة كبيرة وعظيمة بالله، كما توافرت وتحققت عند أم النبي موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]. هذه ثقتها في الله، والتجاؤها إلى الله عز وجل، واعتمادها على رب العالمين.

موقف آخر في الثقة بالله:

سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا هارون عليه السلام عندما جاء الأمر لهما بالذهاب إلى هذا الفرعون الطاغية، فإنهما تعجبا أن يواجها هذا الطاغية الفرعون، لكن الله تعالى قال لهما: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه: ٤٦].

أي: قال الله لموسى وهارون: لا تخافا من فرعون؛ فإنني معكما أسمع كلامكما، وأرى أفعالكما.

والمصيبة عندنا ـ إذا صح التعبير ـ أن الخوف عندنا زائد، والسخط عندنا زائد! إن الله سبحانه وتعالى لم يقل لهما: إني معكما، إلا بعد أن قال لهما أولاً: لا تخافا، فلا ينبغي لك أن ترتعش من عدوك، ولا ينبغي أن يسُلب الإيمان من قلبك قبل أن تقابل

عدوك، وإنما تلقاه وأنت تعلم إنك لا تقاتله وحدك، وإنما يقاتل الله سبحانه وتعالى معك، وهذه مسألة إيمانية مهمة، فالمهم أن تواجهه وعندك إيمان؛ لأنك إذا قاتلت العدو بمفهوم العدة والعتاد والأسلحة فإنهم أعتى منك أسلحة.

وهكذا انتهت القضية في الأمة المحمدية، فالله تعالى ناصرها ومؤيدها، وعندما يهتز اليقين في الله جل في عُلاه، ويهتز اليقين في رسول الله ﷺ فإننا ننهزم قبل أن نحارب، هذه قاعدة مهمة.

واعلم أيضًا أن الفرج في الرضا واليقين، والحزن في السخط، أي أن الإنسان إذا لم يرضَ عن حكم الله ﷻ فإنه دائمًا يكون مهزومًا وحزينًا لا يسلم بالقضاء، يقول: فلان عنده وأنا ليس عندي، وهنا ينسلخ الإيمان من قلبه؛ فلا يصح للمسلم أن ينظر إلى ما في أيدي الناس؛ فإن معنى الرضا يخرج من قلبه.

رحلة موسى عليه السلام:

ما زلنا نتحدث عن الثقة في الله، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. هذه هي الثقة، فسيدنا موسى عليه السلام عنده ثقة في الله، فعندما طلبوا منه موعدًا كما في سورة طه رد عليهم سيدنا موسى برد الواثق بالله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]. قال موسى عليه السلام لفرعون: موعدكم للاجتماع يوم العيد حين يتزيَّن الناس، ويجتمعون من كل فج وناحية وقت الضحى.

ولاحظ هذا المعنى أيضًا في السياق السابق للآيات؛ فرسول الله ﷺ عندما قال للرجل الذي جاء وقال له: إن أخي لا يستقر طعام في بطنه، فقال له ﷺ: «عليك بالعسل»، فجاء له مرة أخرى، وقال لرسول الله ﷺ: إن العسل لم يفعل شيئًا لأخي، فما زال أخي مريضًا، فأوضح له رسول الله ﷺ أن العيب في بطن أخيه، فقال: «صدق الله، وكذب بطن أخيك»[1]. فالعيب ليس في العسل الذي قال سبحانه عنه إنه شفاء،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري رقم ٥٦٨٤، ومسلم رقم ٥٩٠١، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

ولكن العيب في الذي أخذ العسل، وشرب العسل؛ لأنه ليس عنده يقين بأن العسل سوف يشفيه، وعندما اكتمل اليقين في داخل هذا الرجل وشرب العسل فإنه شُفِي من أول رشفة من العسل.. إذن لا بد من اليقين والثقة في الله.

معنى آخر في الثقة بالله:

قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء: ٦٥]. أقسم الله تعالى بربوبيته أن هؤلاء لا يؤمنون حقيقة حتى يجعلوك حكمًا فيما وقع بينهم من نزاع في حياتك، ويتحاكموا إلى سنتك بعد انتقالك، ثم لا يجدوا في أنفسهم ضيقًا مما انتهى إليه حكمك، وينقادوا مع ذلك انقيادًا تامًّا، فالحكم بما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب والسنة في كل شأن من شؤون الحياة من صميم الإيمان مع الرضا والتسليم.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ لَهُمْ صِحَّةً فِي إِيمَانٍ، وَإِيمَانًا فِي حُسْنِ خُلُقٍ وَنَجَاحًا يَتْبَعُهُ فَلَاحٌ، اللَّهُمَّ اشْدُدْ بِهِمْ عَضُدَنَا، وَأَقِمْ بِهِمْ وُدَّنَا، وَكَثِّرْ بِهِمْ عَدَدَنَا، وَزَيِّنْ بِهِمْ مَحْضَرَنَا، وَأَحْيِي بِهِمْ ذِكْرَنَا، وَاكْفِنَا بِهِمْ فِي غَيْبَتِنَا، وَأَعِنَّا بِهِمْ عَلَى حَاجَتِنَا، وَاجْعَلْهُمْ لَنَا مُحِبِّينَ مُطِيعِينَ، غَيْرَ عَاصِينَ، وَلَا عَاقِّينَ، وَلَا مُخَالِفِينَ وَلَا خَاطِئِينَ، وَأَعِنَّا عَلَى تَرْبِيَتِهِمْ، وَبِرِّهِمْ، وَاجْعَلْهُمْ لَنَا عَوْنًا، وَأَعِذْنَا وَذُرِّيَّتَنَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

اللَّهُمَّ إِنَّا عَبِيدُكَ وَبَنُو عَبِيدِكَ وَبَنُو إِمَائِكَ، نَوَاصِينَا بِيَدِكَ، مَاضٍ فِينَا حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِينَا قَضَاؤُكَ، نَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قُلُوبِنَا، وَنُورَ صُدُورِنَا، وَجَلَاءَ حُزْنِنَا، وَذَهَابَ هَمِّنَا وَغَمِّنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلِ الْقُرْآنَ شَافِعًا لَنَا، وَشَاهِدًا لَنَا لَا عَلَيْنَا، يَوْمَ الْقِيَامَةِ، اللَّهُمَّ فَاجْعَلْ مَكَانَ اللَّوْعَةِ حَلَاوَةً، وَجَزَاءَ الْحُزْنِ سُرُورًا، وَعِنْدَ الْخَوْفِ أَمْنًا، اللَّهُمَّ عَجِّلْ لِأَوْلِيَائِكَ الْفَرَجَ وَالْعَافِيَةَ، وَاجْعَلْ ذَلِكَ كَفَّارَةً لِسَيِّئَاتِنَا، اللَّهُمَّ أَبْرِدْ شَهَوَاتِ الْقَلْبِ بِثَلْجِ الْيَقِينِ، وَأَطْفِئْ جَمْرَ الْأَرْوَاحِ

بِمَاءِ الإِيمَانِ، يَا رَبِّ أَلْقِ عَلَى العُيُونِ السَّاهِرَةِ نُعَاسَةَ أَمْنٍ مِنْكَ عَلَى نُفُوسِ المُضْطَرِّينَ سَكِينَةً، وَأَتِنَا فَتْحًا قَرِيبًا، وَاهْدِ الحَيَارَى إِلَى نُورِكَ، وَضُلَّالَ المَنَاهِجِ إِلَى صِرَاطِكَ وَالزَّائِغِينَ عَنِ السَّبِيلِ إِلَى هُدَاكَ.

وصل اللهم وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.